في الأدب والأدباء!

نحن في زمن يُسأل عن كاتب احتضنته حالة ما أو مال حل عليه (أو جمال ما لبسها!)، فإن اورد اسمه خلواً من الالقاب المشبوهة في معظم الاحيان، نُبذ وسقط من العيون، وإن ذكر يخفره حرس من الالقاب خفضت له الهام احتراماً واحل المقام الرفيع. مع ان هذه الالقاب وتلك النعوت، اصبحت في اكثر الحالات لا تعني شيئاً، إذ لا تمثل حقيقة ولا تدل على فضل، وغدا حكمها كحكم كل شيء تسقط قيمته متى كثر، وترتفع متى قل!.

وباءٌ اخلاقي فشا في الناس وتناول معظم كتابنا، اعني به الدعوة والدعوى والاثرة والتفيش. قلت معظمهم ولم اقل كلهم، لاننا لم نعدم والحمد لله، فئة تشابه السنبلة المثقلة كلما ازدادت معرفة واختباراً ونضوجاً. ازدادت وقاراً وتواضعاً وانتاجاً، وتدرك ان الزهرة العطرة يفوح عطرها وإن اخفتها عن الانظار الاشواك والادغال، وان الزهرة اللاعطرة لا يرجى طيبها وإن علت الصدور ووضعت على الرفوف. وانما اعني الفئات الوقواقة التي تقلق الناس كلما خطت حرفاً أو لفظت كلمة، لانها لا تكتب حباً بالادب او رغبة في الفائدة الادبية، بل لتجعل من الكلمة التي تلقيها أو الصفحة التي تسودها، بوقاً يزمر باسمها.

نريد ادباء يغارون على الادب، لانه ادب وحسب، ويفقهون ان الاديب الحقيقي هو الذي يكتب مدفوعاً بقلبه وروحه كما يغرد الطائر مدفوعاً بطبعه واتباعاً لمشيئة الناموس الكلي. ونريد ادباء ينظرون الى الادب نظرة جدية ويتوخون منه غير ما يتوخى التاجر من عرض سلعته، لان الادب شوق في النفس ولجاجة في الصدر، وليس مادة تكيفها الاغراض والعوبة يتلهى بها مالكها!.

من اسباب تدني مستوى الآداب في ايامنا هذه ما تأتى نتيجة ازماتنا المتتالية من انحباس للمشاعر والاحاسيس وحتى المعايير، فعندما استتبت الامور نسبياً وهدأت المدافع والقنابل، تهافت الناس على شؤون الحياة تهافتاً غريباً ادى الى الفوضى، وعاقبة الفوضى، المفاسد والتسفل لاسيما في الاخلاق. الهوس والزيغ والتبهنس، ثم امراض الانا باشكالها المقيتة، اجتاحت كل الطبقات وسطت على العقول فلم يسلم منها إلا افراد هم اشبه بالاجسام التي وهبت مناعة طبيعية تدرأ عنها الامراض. وهنا اتمثل ادبنا الرصين السالف، وتلك القافلة من ادباء العربية التي اذابت ادمغتها الليالي لكي تنير سبيل قومها من غير ادعاء ولا جعجعة. ولم نسمع ان احدهم استكتب الناس لاطرائه، او توصل الى ان يمدح نفسه بنفسه، كما يجري اليوم.

لا يفهم من هذا ان الادب عقيدة توجب على اتباعها الزهد في الدنيا، بل اود ان اقول ان الدعوة لا تصنع من الانسان اديباً، ولا من الاديب عبقرياً، كما ان الاديب الحقيقي لا يعتمد الدعوة، فالشهرة كالحب لا ارغام فيهما. الادب غاية بل شوق النفس، فهو اذاً مثلها الاعلى الذي يشمل كل دقائق الحياة، ولا معنى للحياة ما لم يخفف من خشونتها عطف وحنان ومؤاساة.

د. جهاد نعمان